عرفت هــؤلاء

بقلم :
أنور السادات

.. وببطء شديد ، رفعت وجهى عن الكتاب لانظر الى من يقف امامى ، ففوجئت بالفريق ابراهيم عطا الله باشا ـ رئيس اركان حرب الجيش المصرى ـ واقفا ينظر الى شذرا ، وبجانبه ياوره الخاص وباقى المرافقين !

لقد دخل الى المكتب باحثا عنى ، وكنت مستغرقا كل الاستغراق فى القراءة ، فلم أتنبه الى وجوده ، ولم يتصور الفريق ان يبلغ الاستهتار بيوزباشى صغير أن يتجاهل رئيس الاركان ، ويظل جالسا فوق مقعده ، ويقرأ فى كتابه ، بلا أدنى حرج أو اهتمام بسيادة الفريق !

..وسقطت الطائرة بعزيز المصرى!

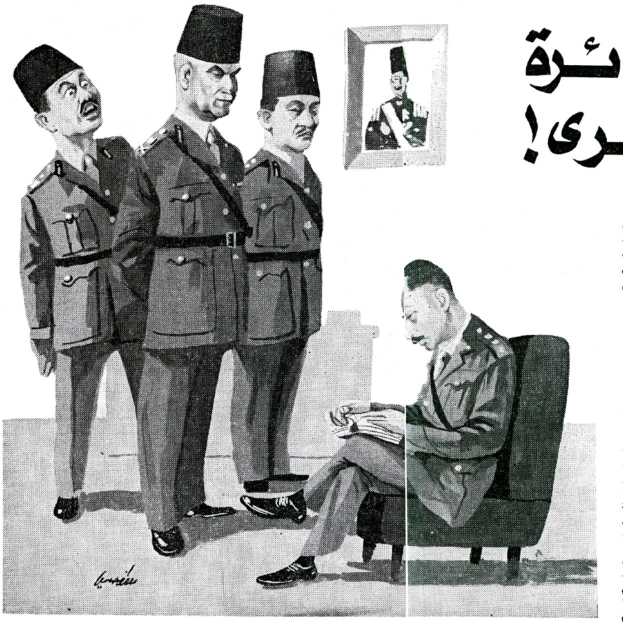

ذهبت الى محل تأجير السيارات ، بشارع الانتيكخانة ، واستأجرت سيارة ، ومشيت بها فى احد الشوارع الهادئة ، ثم اقتربت من عمود انارة فوق الرصيف واصطدمت به صدمة بسيطة ، مرسومة ، وكافية لاقناع الناس بانها حادثة ! . وجاء المارة بسرعة لانقاذ سائق السيارة التى اصطدمت بعمود الانارة ، وقبل وصولهم كنت قد وضعت راسى فوق عجلة القيادة واغلقت عينى وكاننى مغمى على .

وحملونى حملا لنقلى فى سيارة اخرى الى المستشفى العسكرى بكوبرى القبة . وقام المستشفى بابلاغ سلاح الاشارة بان اليوزباشى محمد انورالسادات اصيب فى حادث سيارة ، ويحتاج الى علاج بالمستشفى لمدة اسبوع !

والغريب ان الاطباء الذين قاموا بالكشف على اجمعوا على حاجتى الى البقاء فى المستشفى ! فقد لاحظوا ارتفاعا فى الضغط . ربما نتيجة للارهاق ، وللحالة النفسية المتوترة التى كنت امر بها . فطلبوا حجزى بالمستشفى لمدة اسبوع ، ووصفوا لى « كورس » حقن كالسيوم . وكانت تلك الحقن « موضة » فى تلك الايام !

وجاء زميلى ونائبى فى التنظيم السرى ، عبدالمنعم عبدالرءوف لزيارتى . فقلت له :

ـ اننى مراقب هنا من المخابرات المصرية والانجليزية . وعليك ان تحل محلى فى تنفيذ اوامر الفريق عزيز المصرى . فاذهب به بالسيارة التى اشتريناها من وكالة البلح ، الى جبل رزة ـ فى طريق الفيوم ـ لتنقله الطائرة الالمانية الى بيروت ، وتسلم من قائدها الذخيرة والاسلحة التى طلبناها منهم . وعليك ان تضع تلك الاسلحة فى مكان امين ، لاستخدامها فيما بعد .

وكانت الاوامر قد صدرت بابعادى عن الخدمة داخل المدن ، وتقرر نقلى الى الجراولة ، فى قلب الصحراء عند مرسى مطروح . وقد افتعلت حادثة السيارة حتى يتأجل تنفيذ النقل لعدة ايام اتابع فيها ـ من القاهرة ـ عملية سفر عزيز المصرى بالطائرة الى بيروت للاتصال بالالمان هناك .

ولم يستطع الانجليز والمخابرات العسكرية تنفيذ تعليمات نقلى الى الصحراء النائية ، بناء على تقرير اطباء المستشفى . واضطروا الى الموافقة على اقامتى فى المستشفى ، ولكن لمدة سبعة ايام فقط . وفى نهاية اليوم السابع ، فوجئت بسيارة جيش تقف امام باب المستشفى انتظارا لنقلى منها الى الجراولة رأسا !

ولم استطع الافلات منهم . واضطررت الى ركوب السيارة التى نقلتنى الى الجراولة عند مرسى مطروح . ولم اعرف ماذا فعل عزيز المصرى وعبدالمنعم عبدالرءوف الا بعد فترة . فقد فشلت عملية تهريب عزيز المصرى الى بيروت طبقا للخطة المتفق عليها مع الالمان . ففى اليوم الموعود توجه عزيز مع عبدالمنعم الى جبل رزة انتظارا لوصول الطائرة الالمانية القادمة من بيروت والمحملة بالاسلحة والذخيرة ، وشاء الحظ ان تتعطل السيارة قبل ان تصل الى جبل رزة . وفشلت الخطة .. !

وقتها كنت فى الجراولة ، تنفيذا لامر النقل الذى صدر بهدف ابعادى عن الخدمة داخل المدن ومنعا لاتصالى بعزيز المصرى . وكما قلت ـ فى الحلقة الماضية ـ فان الجراولة لا تشكل اية اهمية عسكرية . فهى عبارة عن صحراء جرداء ، ويقوم امباشى واحد بعمل الاتصالات بواسطة جهاز لاسلكى بسيط . ولذلك كان من الغريب ان يرسل يوزباشى ـ مثلى ـ ليقوم بالعمل الذى يقوم به امباشى واحد ! ولكن الهدف ـ الذى لم يكن خافيا على احد ـ هو ابعادى عن القاهرة بأى ثمن !

وكان يخدم فى هذه المنطقة النائية ضابط طبيب هو المرحوم يوسف رشاد . وسرعان ماتصادقنا واصبحنا لانفترق طوال النهار ماعدا ربع الساعة الذى كان يعالج فيه يوسف رشاد مرضاه من الجنود . وفيما عدا ذلك كنا نجلس معا ، بالمايوه ، ونستحم فى البحر ، ونمارس مختلف انواع الرياضة البدنية . فلم يكن لدينا ما نفعله غير الاسترخاء فوق رمال الشاطىء ، والاستمتاع بالعوم فى مياه البحر . وهى متعة لم اكن قد عرفتها من قبل !

وعلى الرغم من هذا فان الانجليز ، والمخابرات العسكرية ، لم يتركونى وشأنى . فقد فوجئت ذات صباح بوصول ضابط جديد للخدمة فى الجراولة ، ولم يكن هناك فى تلك المنطقة النائية ما يستدعى تواجد هذا الضابط . ولم يقم بأى عمل محدد .. كل ما كان يقوم به هو ان يلازمنى كظلى ! ولم يكن الامر يحتاج الى ذكاء لمعرفة الهدف من وصول هذا الضابط . فقد ارسلوه لمراقبتى ، وتسجيل اتصالاتى ، ورصد تحركاتى ! ولم يكن لى ـ فى الجراولة ـ اية اتصالات ، أو تحركات ، اللهم الا اتصالى بيوسف رشاد ، وتحركاتى فوق رمال الشاطىء وداخل البحر !

فقد انقطعت صلتى بعزيز المصرى ، وبعبدالمنعم عبدالرءوف ، منذ اللحظة التى ركبت فيها سيارة سلاح الاشارة التى نقلتنى الى هنا . ولم يحاول احد ان يتصل بى من القاهرة ، أو من غيرها . كما لم تصلنى رسالة واحدة يمكن ان تحمل لى اخبارا يتوقعها الانجليز ورجال المخابرات العسكرية .

ومرت الايام ، بطيئة ، ورتيبة ..

وذات صباح جاء من يقول لى :

ـ لقد وصل إلى الوحدة ضابط يسأل عن اليوزباشى محمد انور السادات .

فقلت لناقل الخبر :

ـ دعه يأتى لمقابلتى هنا فى خيمتى .

وما أن دخل الضابط ، وتعرف على شخصيتى ، حتى فاجأنى بقوله :

ـ انك مطلوب للسفر معى فورا الى القاهرة . فانت مطلوب للادلاء بأقوالك أمام النيابة فى مبنى وزارة الحربية . فاستعد للرحيل فى الحال .

وتحققت من صحة الامر العسكرى . وقمت لاعداد نفسى للسفر الى القاهرة فى نفس العربه العسكريه التى وصل بها الضابط المرافق .

واستغرقت الرحلة من الجراولة الى القاهرة ما يقرب من اليوم ونصف اليوم بالتمام والكمال! فلم يكن مسموحا لنا بالتوقف للراحة . وكانت الاوامر التى يحملها الضابط تقول :

ـ ممنوع التوقف فى الطريق ، الا لخدمة السيارة من وقود وزيوت فقط!

وكانت الرحلة بالغة المشقة . واحسسنا جميعا بالتعب ، والارهاق ، الشديدين . وكان سائق العربة اكثرنا تعبا ، وارهاقا . فقد كنا ـ انا والضابط المرافق ـ نستسلم للنوم كما يحلو لنا . اما السائق فلم يكن مسموحا له بالنوم بناء على الاوامر العسكرية المشددة . واستطاع السائق المسكين أن يقاوم ، وان يتحمل الارهاق ، ولكنه لم يستطع ـ ونحن فى وسط الطريق الصحراوى بين الاسكندرية والقاهرة ـ ان يطرد النعاس من عينيه ، فاستسلم له ونام فوق عجلة القيادة ، والسيارة منطلقة بأقصى سرعتها!

وكان الوقت ليلا ..

ولم نلحظ ما فعله السائق . فقد كنا ـ الضابط المرافق وانا ـ فى سبات عميق فى المقعد الخلفى! المهم اننا استيقظنا فى الصباح ، ففوجئنا بالسيارة واقفة داخل الصحراء ، بعد أن خرجت من الطريق واندفعت الى مسافة بعيدة داخل الصحراء! ووجدنا السائق نائما فوق عجلة القيادة ، وشخيره يمزق سكون المكان . واتضح لنا ان السائق لم يستطع البقاء متيقظا ، فاستسلم للنوم ، او استسلم لحالة الاغماء وفقد الوعى التى اصيب بها من فرط التعب والارهاق ، وترك السيارة تخرج من الطريق وتندفع داخل الصحراء الى ان توقفت ، بسلام .

وهكذا كتب لنا عمر جديد ..

فقد كان من الممكن جدا ان تنقلب السيارة ، ويروح ضحيتها من بداخلها ، لولا لطف الله ورحمته بنا .

واستأنفنا رحلتنا ، حتى وصلنا الى الجيزة وتوقفت السيارة أمام أول بقال استأذنت صاحبه فى مكالمة تليفونية . واتصلت بجماعتى استفسر منهم عز سبب استدعائى بهذا الشكل . فلم اسمع جواب شافيا . فلم يكن احد منهم يعرف اى شيء .

وخرجت من محل البقالة ، فوجدت بائع الصحف فاشتريت منه صحف الصباح .. والقيت نظرة علي الصفحة الأولى فعرفت سر استدعائى على الفور كانت الصحف تحمل نبأ سقوط طائرة كانت تحمل عزيز المصرى وحسين ذوالفقار صبرى وعبدالمنع عبدالرؤوف التى حاولوا الهرب بها والاتصا بالألمان .. بعد أن فشلت المحاولة الأولى !

وقلت لنفسى :

ـ بس .. هذا هو سبب استدعائى لسماع أقوال أمام النيابة !

وكانت هذه هي اول مرة أسمع فيها عن هذ العملية التى سقط عزيز المصرى بسببها . ولم اك اعرف اى شيء عن هذا الموضوع ، ولاكيف نفذ ، و لماذا فشل !

وفكرت فى الذهاب الى من يستطيع ان يمدنى بتل التفاصيل ، حتى أكون على بينة من أمرى قبل المثو امام النيابة . فطلبت من الضابط المرافق أن يتركن لأذهب الى منزلى لأحلق ذقنى ، واستبدل ملابسى ، الحق به بعد ذلك فى وزارة الحربية . ولكن الضاب رفض ، فالأوامر لديه الا يتركنى أغيب عن نظره ثا واحدة !

واستسلمت بدون نقاش ، وانطلقت بنا السيا ولم تتوقف الا امام بوابة وزارة الحربية .. وكا تقع أمام ضريح سعد زغلول . وهناك تسلمنى ارك حرب الوزارة ، الذى صعد معى الى مكتب سكر وزير الحربية . الذى قدم لى كرسيا وطلب م الانتظار لحين استدعائى للمثول أمام النيابة الت كانت تباشر تحقيقاتها فى الدور الأرضى

وطال انتظارى ..

وانشغل سكرتير الوزير عنى بمكالماته التليفونية المتلاحقة ، وبالزوار الذين يتوافدون على المكتب . فما كان منى الا ان اخرجت من حقيبه اوراقى ، كتابا باللغة الانجليزية كنت قد بدأت فى قراءته عن حياة مصطفى كمال اتاتورك ، كتبه كاتب انجليزى اسمه ارمسترونج بعنوان « الذئب الاغبر » .

واندمجت فى القراءة بسرعة . لدرجة اننى نسيت ماينتظرنى ، وانصرفت تماما عما يحدث داخل المكتب الذى أجلس فيه .

ومرت الساعات ، الواحدة بعد الأخرى ..

ولم أشعر بوطأتها . فقد كنت مندمجا فى القراءة ، وسعيدا سعادة كبيرة بما فى الكتاب . وانقطعت صلتى تماما بزوار مكتب سكرتير الوزير ، فلم اعد أرفع وجهى عن صفحة الكتاب عندما يفتح الباب ويدخل منه احد الزوار ، أو عندما يتحدث سكرتير الوزير فى التليفون ويرتفع صوته عاليا .

وفجأة .. تنبهت الى ان هناك من يقف أمامى ، ويركز أنظاره فوقى .. خاصة ان الصمت اطبق فجأة على المكان ، ولم أعد أسمع صوتا ، أو أسمع رنينا للتليفون .

وببطء شديد رفعت وجهى عن الكتاب لأنظر الى من يقف أمامى ، فاذا بى أجد الفريق ابراهيم عطاالله باشا ، رئيس اركان حرب الجيش المصرى ، واقفا ينظر الى شذرا ، وبجانبه ياوره الخاص وبقية المرافقين ! وقفزت من فوق مقعدى ، وأديت له التحية العسكرية ، مرتبكا .

ولم يخاطبنى بكلمة واحدة . فقد ازدادت حدة نظرته ، التى رمانى بها ، ثم غادر الغرفة .

وسمعت سكرتير الوزير يقول لى مندهشا :

ـ ايه اللى عملته ده ياحضرة اليوزباشى ؟ معقول انك تجلس وسيادة الفريق واقف أمامك منذ ٥ دقائق منتظرا ان تتنبه ، وتقوم لتحيته ؟!

وقلت لسكرتير الوزير :

ـ الحقيقة .. اننى لم اتنبه لوجوده . فقد كنت مستغرقا فى قراءة هذا الكتاب ، ولم ينبهنى أحد !

فقال السكرتير :

ـ لقد دخل سيادة الفريق لا لشيء الا لرؤيتك . لقد طلب ان يرى انور السادات القادم لتوه من الجراولة ، والذى كان يتصل بعزيز المصرى . ووقف أمامك ينظر اليك لعلك تتنبه . ولكنك واصلت قراءة الكتاب ولم ترفع وجهك عنه ، مما أغضبه . ورفض ان يتدخل أحد لتنبيهك . وغادر الغرفة بمجرد ان تنبهت وقمت لتحيته . فهل هذا معقول ؟!

وقلت للسكرتير :

ـ والله اننى لم اتنبه الى وصوله . لقد جئت الى هنا بعد رحلة شاقة ومتعبة . وجلست ساعات لاأعرف عددها انتظارا لاستدعائى للوقوف أمام النيابة لسؤالى عن شيء لا أعرفه . فماذا تريد منى ان افعل غير أن أقتل الوقت بالقراءة ؟!

وتركنى السكرتير وعاد الى مقعده ، والى تليفوناته . وعدت انا بدورى الى كتابى التهم صفحاته المشوقة التهاما ..

وانتهت ساعات العمل الرسمية ..

وغادر الوزير مكتبه ، وتبعه سكرتيره ، وباقى موظفى وزارة الحربية . ولم يبق فى المكتب غيرى ومعى حراسة مسلحة !

واحضروا لى طعام الغداء ، فتناولته ، ثم عدت الى كتاب الذئب الأغبر .. !

ثم توقفت عن القراءة ، عندما احضروا لى طعام العشاء !

أى اننى بقيت فى مكتب سكرتير الوزير منذ الصباح الباكر وحتى موعد صلاة العشاء .. انتظارا لسماع اقوالى أمام النيابة !

وبعد تناول طعام العشاء ـ وأذكر انه كان يتكون من الكباب ! ـ تذكرت فجأة المصيبة التى بين يدى ! فقد كنت أقرأ فى كتاب يمجد كفاح مصطفى كمال اتاتورك ، الزعيم التركى الذى قام بانقلاب ضد الخليفة ! وهذا وحده كاف للقبض على .. وتقديمى للمحاكمة بتهمة مؤامرة للاطاحة بحكم الملك !

وحمدت الله ان الفريق ابراهيم عطاالله لم يلمح غلاف الكتاب ، والا قدمت له الفرصة للقبض على ومحاكمتى بعد طردى من الخدمة فى الجيش المصرى !

وعدت للقراءة مرة أخرى !

وعند منتصف الليل تماما ، جاء من يستدعينى بناء على امر من النيابة فى الدور الأرضى .

وسألنى وكيل النيابة الأسئلة التمهيدية المعروفة ، مثل اسمى ، وعنوانى ، ومكان عملى ، ثم انتقل الى السؤال المهم قائلا :

ـ ماهى صلتك بعزيز المصرى ؟

فقلت له :

ـ نعم أعرفه ، وتقابلت معه عدة مرات . فقد جاء للتفتيش على الوحدة التى كنت أخدم فيها فى منقباد . واخذنا معه لزيارة الدير المحرق بالقرب من مقباد . ونصحنا ـ كضباط ـ بضرورة الاطلاع والتثقيف وكثرة القراءة . ثم زرته فى القاهرة عندما نقلت الى سلاح الاشارة . فاننى أعتبره الأب الروحى لى

وسألنى وكيل النيابة :

ـ الم يحدثك عن السفر بالطائرة ؟

فقلت :

ـ ابدا . لم يفاتحنى فى أى شيء خاص بهذا الموضوع . فأحاديثه معى مجرد دردشة ، أتعلم منها ، واستفيد من خبراته كرجل عسكرى .

ولم يستطع وكيل النيابة أن يأخذ منى أكثر مما قلته . فقد كان معى الدليل على ابتعادى عن موضوع المساءلة . كنت أخدم فى الجراولة ، التى تبعد بمسافة ٥٠٠ كيلو متر عن القاهرة التى شهدت عملية محاولة الهرب بالطائرة ، وسقوطها !

واقتنع وكيل النيابة بدليل براءتى . وهكذا ينص القانون .. وسيادته . فقد قدمت الدليل على ابتعادى عن مكان القضية ، فجاءت سيادة القانون وحمتنى ، وانقذتنى ، واقنعت النيابة ببراءتى

لقد حاولت المخابرات العسكرية ابعادى عن عزيز المصرى ، فسعت الى ابعادى عن القاهرة ونقلى الى الصحراء النائية فى مرسى مطروح . ونفذت أمر النقل ، وبعد ثلاثة اسابيع كاملة على وصولى الى الجراولة سقطت طائرة عزيز المصرى . وهكذا خدمتنى المخابرات العسكرية رغما عنها ، فلولا ابعادى عن القاهرة ، لما أمكننى اقناع وكيل النيابة ببراءتى !

واضطر وكيل النيابة الى قفل المحضر ، واخلاء سبيلى ..

لم يستغرق التحقيق اكثر من ١٥ دقيقة فقط . وبعدها سمح لى وكيل النيابة بالذهاب الى منزلى ، والعودة الى عملى فى اليوم التالى .

وسمح لى بالذهاب والمبيت فى بيتى ، وان أحصل على يوم أجازة ، ثم أذهب بعده الى سلاح الاشارة ليعطينى سيارة اعود بها الى مقر عملى فى الجراولة .

وبدلا من أن أمضى اليوم التالى فى النوم ، والراحة ، بعد تعب وارهاق اليومين السابقين ، امضيته فى البحث عن معلومات خاصة بحادث سقوط الطائرة ، وفشل المحاولة .

استمعت الى بعض المعلومات ، ولم أتحصل على الحقيقة كاملة ..

كل ماعرفته وقتها ان خبرة ومهارة الطيار حسين ذو الفقار ، انقذتهما من الموت المحقق . فقد اضطر الى الهبوط بالطائرة ، واستطاع ـ بمعجزة ـ ان يهبط فى حديقة برتقال هبوطا اضطراريا أمنا ، ولولا ذلك لمات الثلاثة موتا محققا .

تفاصيل العملية ، والتفكير فيها ، وكيفية تنفيذها ، لم تتوافر لدى فى يوم الاجازة الذى سمح لى به . واضطررت الى ركوب السيارة فى اليوم التالى وعدت الى مقر عملى فى الجراولة .

وعدت الى حياة الكسل ، والراحة ، والعوم ، والرياضة ..

وكنا نتابع مايحدث فى العالم خلال الحرب العالمية الثانية .

وجاءنا وقتها نبأ هجوم هتلر على روسيا . وقد احدث هذا الهجوم دويا هائلا فى العالم كله . كما احدث ضجة بسيطة فى الجراولة بينى وبين زميلى الضابط طبيب يوسف رشاد . فقد كان من المؤيدين لكل ماهو غربى . فى حين اننى كنت ضد أى شيء يأتى من الغرب ! فالذى فعله الاستعمار الغربى ـ وبالذات البريطانى ـ فى بلادى ، أجبرنى على كراهية الغرب . وحمسنى لكل مايصيب الغرب من هزائم !

ولاحظ يوسف رشاد شغفى بالحديث عن السياسة . فقال لى :

مادمت غاوى سياسة بهذا الشكل ، فخذ هذه الكتب السياسية لتقرأها .

وقتها كنت دون الثالثة والعشرين من عمرى . وكانت لغتى الانجليزية تحتاج الى تقوية . وكانت الكتب السياسية التى أعطانى اياها يوسف رشاد أكبر مساعد لى للتثقيف السياسى ، من جهة ، وتقوية لغتى الانجليزية ، من جهة ثانية .

وكانت مناقشاتى السياسية مع يوسف رشاد ، تعليقا على تطورات الحرب بين ألمانيا وروسيا ، عاملا مخففا للوحدة والغربة فى هذا المكان النائى فى قلب الصحراء .

وذات يوم جاء من يحمل ليوسف رشاد الخبر السعيد الذى ظل ينتظره ، ويحلم به !

أنور السادات